**رابعا- السرد على لسان الحيوان:**

**1- الخُرافة:**

 يحيل الجذر اللغوي الخرافة على "فساد العقل من الكبر" ومن فسد عقله، فهو "خِرف" ومنها "المخرّف" الذي تعفن عقله، والتبست الأمور عليه فراح يخلط فيها خلطاً كاملاً.

أما الخرافة اصطلاحًا، فهي "الحديث المستملح من الكذب" والكذب نوع من فساد العقول، وتربط الخرافة بالليل عند ابن منظور،([[1]](#footnote-2)) أما الميداني فيضيف بأن الخرافة اسم مشتق من اختراف السمر، أي اشتظرافه"([[2]](#footnote-3))، وبهذا يصّح ما ذهب إليه عبد الفتاح كيليطو من أن "موطن الخرافة هو الليل"([[3]](#footnote-4))، فكل من الذخيرتين الأساسيتين للحكايات الخرافية، وهما: "ألف ليلة وليلة" و"مئة ليلة وليلة" كانت خرافاتها تروى ليلا، وتُحضر نهارا، فإذن، الخرافة تشير إلى الكذب، أو الخيال، والبعد عن الواقع، أو الهذيان.

**1-1 نشأتها:**

يصعب وضع تحديد تاريخي، يبيّن العصر الذي ظهرت فيه الحكاية الخرافية، لغياب المعطيات والأدلة التي يمكن الاستناد إليها في ذلك، ولكن من المؤكد أن الخرافة ترجع في أصولها إلى مراحل متقدمة من تاريخ علاقة الإنسان الغامضة بالكون، فهي تنطوي على تصورات ورؤى ووقائع قديمة، تداخلت فيما بينها، وانصهرت في عصور زمنية متعاقبة، واستقامت نوعا سرديا مهما بين مجموعة الأخبار والحكايات.

لقد تشكلت في أوساط العامة، ولم يعن بها أحد من الخاصة، لأن الثقافة المتعالمة ترى فيها خطرا مدمرا، فلا تستقيم التسلية مع الوقار والصرامة، فبين الثقافة المتعالمة والخرافة مسافة كبيرة لم يجرؤ أحد على ردمها، إلا أنّه البوابة التي دخلت منها تنسب إلى الرسول (صلى الله عليه وسلم)([[4]](#footnote-5)).

**1-2 حديث خرافة:**

 حملت "حديث خرافة"[[5]](#footnote-6)\* عشرات المصادر الدينية، والتاريخية، واللغوية، والأدبية، وتتفق المصادر الأولى على نسبته إلى الرسول (ص)، ولكن المتأخرة منها بدأت تتحسب من ذلك، وتتوجس، وتجد تخريجات لذلك الحديث، ولتنتهي بأن نُسب إلى عائشة (رضي الله عنها).

وتأتي أهمية الحديث لا من حيث كونه دشّن الأساس لظهور الخرافة في الثقافة العربية، فحسب، بل من حيث أن بنيته تمثل صورة وافية لبنية الحكاية الخرافية وهذه الميزة في بناء حديث خرافة جعلته يندرج لاحقا، وبروايات متقاربة في كتاب "ألف ليلة وليلة" متصدرا نسخه المعروفة، وبأسماء مختلفة مثل "حكاية التاجر والعفريت" أو "قصة التاجر والجني" أو "حكاية التاجر مع الجني"، وفيها قصة "الشيوخ الثلاثة مع الجن".

للحديث عدة روايات، لو نظرنا إليها من الزاوية التاريخية المقارنة، لوجدنا أنه بمرور الزمن راحت الثقافة العربية تنغلق على نفسها بمواجهة المرويات الخرافية، وتطردها من الأفق الخصب للتخيلات السردية، فقد تزحزحت المقاصد العامة للحديث، وراح يبعد عن الرسول (ص) قرنا بعد قرن، ظهر تأكيد نسبته للرسول في القرنين الثالث والرابع عند كل من ابن حنبل، وابن قتيبة والمفضّل، لكن انكسارا في نسق التوثيق ظهر مع الميداني والزمخشري، فجرى تضعيف نسبته للرسول من خلال المرور السريع على هذه القضية المهمة وانتهى الأمر عند ابن منظور في قلب الأدوار، فقد قُطعت صلة الرسول (ص) بحديث خرافة، وبه استبدلت عائشة، صارت عائشة في بداية القرن الثامن الهجري حاملة لحديث خرافة، بعد أن كان الرسول يحمله في القرن الثالث وما قبله، جرى تبادل تام في الأدوار، ما الذي جرى لكي تقوم نخبة من الفقهاء، والأدباء، والمفسرين، والمعجميين، بهذه الزحزحة الكبيرة، سوى الانقلاب الثقافي الذي يستبعد السمر اللطيف، ويختزله إلى هذيانات ويراه رجسا غير لائق، ويستجيب لحالة الانغلاق التي خيمت بعد أفول قيمة الأدب؟ إذ في هذا العصر صيغ موقف الإسلام من القصّ، مع ابن الجوزي وغيره فوقعت مطابقة بين القص والدين، وأي تفريق بينهما يعني المروق والهرطقة، ويستحق صاحبه العقاب والتنكيل أيضا الذكورية العربية التي اصطنعت قوتها على أسس دينية، تنامت في العصور المتأخرة تغطيه عن العجز الذي ضربها في الصميم، مقارنة بالأدوار الفاعلة التي كان يمارسها الذكور في القرون الأولى، تلك الذكورية لا تقر بصلاحية الرجال لرواية الأحاديث الخرافية، فكيف الرسول (ص)! الخرافة شأن وضيع ودوني، لا يصلح له سوى النساء اللواتي حبسهن التفسير الإقطاعي للدين في نطاق الحريم، داخل مجال مغلق، لكنه خارج سياق التاريخ، صار التخريف سلوى لهن، تغيرت الوظائف والأدوار، عائشة (رضي الله عنها) التي تبوأت في عصر الرسول (ص) مكانة الشريك والأنيس، ولعبت بعد ذلك أدوار سياسية مهمة، تحولت في بداية القرن الثامن إلى ما يشبه جارية تروي، فمخيال القصور المملوءة بالحريم لا يتيح لها إلا القيام بهذا الدور بدأت السياقات الثقافية تعيد إنتاج الشخصيات والمرويات طبقا لشروطها.

**1-3 التأليف الخرافي عند العرب:**

 لم يورد القرآن أيا من مشتقات الفعل "خرَّف" لكن ورد ذكر الخرافة على لسان الرسول (ص) كما مر بنا، وهنالك أحاديث مماثلة عن الجسَّاسة، والدَّجال، وابن صَّياد، ترد في بعض متون الحديث النبوي، عرفت العرب المرويات الخرافية منذ القدم، سواء في خرافة "أساف ونائلة" اللذين مسخا حجرين لاقترافها إنما جسديا في الكعبة، أو غيرها من الخرافات المتخفية لأوابد العرب الجاهلية، فالمسارات الملتوية للمرويات السردية يصعب رسمها بدقة. تظهر ظلال لها في هذه الخرافة أو تلك، أو تندغم في سواها، ويعاد تركيبها طبقا للسياق الذي تندرج فيه كما يكشف لنا ذلك كتاب "ألف ليلة وليلة" الذي يكاد يجمع، وبتنويعات متعددّة، معظم المرويات الإخبارية، والسيرية والبطولية، والأسطورية، والتشردية، فضلا عن الحكايات ذات الأصول الهندية، والفارسية، واليهودية التي كيفت نفسها، وتوافقت مع السياق الجديد للسرد، وامتثلت لإطار المناقلة السردية الخرافية بين شهرزاد وشهريار([[6]](#footnote-7)).

 يؤكد حديثا خرافة والجساسة أن الرسول (ص) لم يحظر الحكاية الخرافية من الدخول إلى ميدان الأخبار المعروفة آنذاك، سواء في أمر الجن في حديث خرافة، والذي يوافق ما روى عن إسلام الجن على يده عندما انصرف من الطائف راجعا إلى مكة بعد أن يئس من ثقيف أو في حكاية تميم الداري التي توافق ما كان يحدّث به الرسول (ص) عن المسيح الدجال، إن تداول المروايات التي لا تتعارض مع الدين الجديد كان شائعا، والرسول وظّف جانبا منها في تثبيت نبوته.

 اقترنت الخرافة بالأسمار، فما هو موقع الأسمار الخرافية في الثقافة العربية؟ قال الحسن بن سهل: "الآداب عشرة، فثلاثة شهر جانية، وثلاثة أنو شروانية، وثلاثة عربية، وواحدة أربت عليهن، فأما الشهر جانية، فضرب العود، ولعب الشطرنج، ولعب الصوالج، وأما الأنو شروانية فالطب، والهندسية، والفروسية، وأما العربية فالشعر، والنسب، وأيام العرب، وأما الواحدة التي أربت عليهن، فمقطعات الحديث، والسمر، وما يتلقاه الناس بينهم في المجالس"([[7]](#footnote-8)).

ولم يتّردد العرب القدماء من تسمية مقطعات الحديث، أو الأسمار الخرافية ب"قراضات الذهب" وتتخللها في بعض الأحيان أمور الناس اليومية، كان أبو بكر يُسمّر عند الرسول (ص) في أمور المسلمين، وكانت أفضل لذات معاوية في آخر عمره المسامرات، فكان يستقدم المسامرين إلى قصره في دمشق لذلك، وفي مثل هذه المجالس التي تعد البدايات الأولى للثقافة العربية قبل مرحلة التدوين، ظهرت مرويات عبيد بن شريه، وكعب الأحبار، ووهب بن منبه، وعبد الله بن سلام، وبُعثتْ الأخبار القديمة.

تفاعلت المرويات التوارتية والوثنية وأخبار الأنبياء القدامى فيما، بينها، فتبلورت الإسرائيليات، التي فسّر ابن خلدون ظهورها في الثقافة العربية تفسيرا تاريخيا وليس لاهويتيا، فهي كما يرى جزء من الذاكرة الثقافية لأحبار اليهود الذين أسلموا، لكنهم ظلوا يتذكرون مروياتهم القديمة كمحمول ثقافي لازمهم مدة طويلة، ثم كيفت نفسها لتوافق الأطر الإسلامية الجديدة، واهتمت بها نخبة من المفسرين والمؤرخين والمحدثين والإخباريين فضلا عن العامة، واستعانت بها لتربط الدين الجديد بأصول روحية بعيدة، وبحكايات اعتبارية دالة، والحق فقد غزت الإسرائيليات الذاكرة العامة، وجرى تضخيمها، وتوسيع دلالاتها، وتفريق كثير من أحداثها بين المرويات الخرافية، والأسطورية، والشعبية، وقوبلت بمقاومة من الاتجاه المدرسي الخطّي في التفكير الذي سعى إلى تطهير المدونات اللاحقة منها، بحجّة تهديدها للدين، والاستئثار بقيمه الجديدة، وذلك يتصل بالتفسير الصارم للأديان الذي يراها منبتة عما قبلها، فيما يكشف التاريخ المقارن للأديان أنها تنهل جميعها من منابع مشتركة، تعود إلى الإبراهيمية المتفاعلة بتراث بلاد الرافدين.

وفي القرن الثاني الهجري استأثرت الخرافة باهتمام متزايد من الإخباريين والشعراء والكتاب، فترجم عبد الله ابن المقفع **(140ﻫ/757م)** "كليلة ودمنة" إلى العربية وهي أبرز ذخائر الخرافات الهندية التي مُزجت بثقافة البلاط الفارسي قبل الإسلام، ولم يكن هارون الرشيد **(170/173ﻫ/786-808م)** الخليفة الذي تربّع وسط التخيلات والاسمار بمنأى عن حب الاستماع إلى الأحاديث الخرافية، إذ قرب إليه أبا السّري الشاعر الذي ادعى رضاع الجن، وقد وصف ابن خلكان **(681ﻫ/1281م)** أخبار أبي السري، بأنها "كلها غريبة عجيبة"، وبعد نحو قرنين من العصر الذي كان الرشيد مستغرقا في متع أبي السري، بدأ أبو حيان التوحيدي يدون كتاب "الإمتاع والمؤانسة" كاشفا متخيلا في الوقت نفسه، ما يدور في مجالس بغداد من متع عقلية وحسية، وفي هذه الحقبة تشكلت حكايات "ألف ليلة وليلة".

زاد الاهتمام بالخرافات في القرنين الثالث والرابع، وتم تداول كتب السمر في أسواق بغداد على أيام خلفاء بني العباس، فالأسمار والخرافات كان مرغوبا فيها في العصر العباسي، وثبت لنا أن ابن المقفع قام بتعريب "كليلة ودمنة" وفي مطلع ذلك العصر، وقوبل الكتاب بحفاوة كبيرة، وعورض ونُظم وعدَّ من أشهر ما ظهر في وقته وأن الخليفة الرشيد لم يمانع من وجود مخرف كأبي السري في قصره، وأن المأمون عهد لسهل بن هارون بدار الحكمة، وهو يعرف أنَّ له كتبا كثيرة في الخرافات، منها "ثعلة وعفرة" وهو غرار كتاب "كليلة ودمنة" بل أن المسعودي فضله عليه وكتاب "النمر والثعلب" وكتاب "الوامق والعذراء" وكتاب "ندود وودود ولدود" وكتاب "المخزومي والهذلية" وغيرها كثير جاء معظمه على لسان الحيوان، فعرف بذلك والتصق الوصف به، وأن زبيدة سيدة البلاط اتخذت عليًا بن داود كاتبا لها، وهي تعلم أن له كتبا في الخرافات فضلا عن خرافات ابن دلاّن، وابن العطار وآخرين سبقوهم طوال القرن الثاني والثالث، كالعتابي، وأحمد بن طاهر، إلى ذلك يعزو ابن النديم في كتابه "الفهرست" تصنيف الخرافات والأسمار إلى الوراقين ومنهم، ابن أخيّ الشافعي، وياقوت المستعصي، أحمد بن الحسن الخلاَّل، وأبي حيان التوحيدي وأحمد القرشي، وأبو موسى الحامض، وأبن النديم وغيرهم.

سواء اتصل الأمر بالمخرفين أو الشعراء المتماجنين، فلا نعدم وجود درجة من المغايرة تجذب إليها الفضول وحب الاستطلاع، وكان البلاد العباسي، وسوق الوارقين، وعموم المهمشين، يصوغون نظاما تعبيريا خاصا بهم في منأى عن هيمنة السلطات الكبرى للخطاب الديني والأدبي الشائع.

**1-4 الخرافة والحيوان:**

تمتاز الخرافة باستقطابها للرمزية الحيوانية، بوصفها عنصرا صوريا مهيمنا، يشكل جدلها مع مقومات السرد، ويطبع إيهامها الجمالي، ومكانتها البلاغية.

وليس من شك أن الرمزية الحيوانية، سواء في أصولها الأسطورية، أو في تجلياتها الخرافية كالتي تستبطن في نصوص "كليلة ودمنة"، و"البجاتنترا" و"خرافات إيسوب"، تسعى إلى إعادة خلق صور الإنسان عبر تمثيل المواقف والصفات، والعواطف مجردة عن تشخصاتها، بما يبقي لعبة التقاطب والصراع بين أفكار إنسانية ذات امتدادات مظهرية غريبة، قد تكون أكثر دلالة على ماهيتها، مما يكفل المغزى الرمزي القدرة على توليد الصور الذهنية وتخليقها، يقول عبد الفتاح كيليطو عن رمزية الحيوان في الخرافة: "إن الحكمة في الخرافة توضع على ألسنة الحيوان، طبعا هناك من يحرك الأمور، لكنه يتوارى مانحا الحيوانات ملكة النطق... الخرافة، تحاكي "القيمة الرمزية التي يجسدها كل حيوان ضمن مجموع الحيوانات؛ كل خطاب ينطق به حيوان يكون مطابقا للموقع الذي يحتله هذا الأخير في مجمع الحيوان والدور الذي يلعبه فيه، يختلف دور الأسر عن دور ابن آوى، أو الثعلب أو التمساح ... وتستهدف المحاكاة الطريقة التي يجب أن يتصرف بها ويعبر بها "كل حيوان". والنتيجة هي استنساخ نمط قد حددت سماته بصورة نهائية".([[8]](#footnote-9))

تربط الخرافات بالحيوان وأنها كانت معروفة على نطاق واسع ومنذ فترة مبكرة فإذا ربطنا ذلك، بالمتن الخرافي الذي أوردناه كاملا ﻟ"حديث خرافة" وأخذنا في الحسبان الأثر الذي أحدثته تعريب "كليلة ودمنة" إلى العربية وإذا دعمنا كل ذلك، بما قام به الجهشياري الذي ابتدأ بتأليف كتاب اختار فيه "ألف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم"، وقد اجتمع له من ذلك أربعمائة ليلة وثمانون ليلة، ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما في نفسه.

يتبين لنا أن تداول الخرافة في القرون الأربعة الأولى كان شائعا، لكنها كانت تتشكل في منأى عن الثقافة المتعالية، التي غيبتها، فلم يبق منها سوى أخبار متناثرة تشير إلى وجودها، أما الحكايات الخرافية المستقلة، فقد طمست في ثنايا المدونات اللاحقة، واندرجت في ذخائر الخرافات مثل ألف ليلة وليلة ومئة ليلة وليلة والحكايات العجيبة والأخبار الغريبة وغيرها والجدير بالذكر أنه كثيرا ما يجري الدمج بين الخرافات والأسمار في الثقافة العربية القديمة، وامتد ذلك إلى مطالع العصر الحديث فالطبعة الأعرق لكتاب "ألف ليلة وليلة" التي صدرت في الهند عام **1839م** أشير على الغلاف إلى الكتاب يدعى "أسمار الليالي للعرب مما يتضمن الفكاهة ويورث الطرب".

ولكن هل تفرد الأدب العربي بمرويات الأسمار الخرافية في ذلك العصر؟

أول من صنف الخرافات، وجعل لها كتبا واودعها الخزائن، وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفرس، ثم نقلته العرب إلى اللغة العربية، وأول كتاب عمل في هذا المعنى كتاب "هزار أفسان"... وغيره من الكتب الأسمار الفارسية.

أما أسماء كتب الهند في الخرافات والأسمار فهي كتاب كليلة ودمنة فسره عبد الله بن المقفع وغيره، ونقل هذا الكتاب إلى الشعر؛ نقله أبان بن عبد الحميد بن لاحق بن عقير الرقاشي ونقله علي بن داود إلى الشعر ونقله بشر بن المعتمر... وقد عملت شعراء العجم هذا الكتاب شعرا، ونقل إلى اللغة الفارسية بالعربية.

هذه بعض الكتب في الخرافة والسمر في الثقافات المتاخمة كانت معروفة في البلاد التي تحولت إلى الإسلام أو التي بقيت على حالها، لكن كثيرا من تلك الكتب عرف في العربية عبر الترجمة والتلخيص، أو عرف مباشرة من الكتاب الذين كانوا على معرفة باللغات المجاورة، وبخاصة الفارسية.

أشاع كتاب "كليلة ودمنة" مناخا خرافيا، وشجع الاشتغال بهذا النوع السردي الخرافي، وذلك قبل القرن الثالث.

لم ينف أبو الريحان البيروني **(440ﻫ-1048م)** وهو الضليع بالموروث الهندي بدلالة كتابه في تحقيق "ما للهند من مقبولة في العقل أو مرذولة" أمر تعريب عبد الله بن المقفع لكتاب "كليلة ودمنة" لكنه شكك بدقته قال، أنَّ الكتاب: "تردّد بين الفارسية والهندية، ثم العربية والفارسية، على ألسنة قوم لا يؤمن تغييرهم إياه كعبد الله بن المقفع في زيادته باب "بزرويه" فيه قاصدا تشكيك ضعيفي العقائد في الدين، وكسرهم للدعوة إلى مذهب "المنانية" وإذا كان فيما زاد، لم يخل من مثله فيما نقل"، وسواء أكان التشكيك في العقائد هدف ابن المقفع، المفكر الذي جعل من السرد على لسان الحيوان قناعا لأفكاره العقلانية، أما أنَّ البيروني انطلق في رؤيته للأمر من أن الخرافة تستلزم فساد التصورات في الأمور الدينية، فإن تعريب "كليلة ودمنة" خصّب الحكايات الخرافية العربية آنذاك، وفتح لها الأفق على الكنز الهندي الطافح بالخرافات، وكانت الوساطة الفارسية على غاية من الأهمية، فالثقافة الفارسية القديمة المعنية بعوالم القصور، وإدارة الرعية، تركت بصماتها في كتاب "كليلة ودمنة".

تصور مقدمة الكتاب المثيرة- وهي فارسية في الغالب- رغبة كسرى أبو شروان الجامحة في الحصول على الكتاب، فأهمية الحيازة على ذلك الكتاب لا تقف رسالته على حدود سطح النص، كملهاة تعليمية على ألسنة الحيوان، إنما تغور عميقا إلى باطن الكتاب الذي يشغل بالإنسان، وكما قال أبان بن عبد الحميد اللاحقي، في نظمه للكتاب في أربعة عشر ألف بيت من الشعر "فالحكماء يعرفون فضله، والسخفاء يشتهون هزله"، ولعل أكثر أدوار ابن المقفع أهمية، تكمن في وساطته الحقيقية بين الثقافتين العربية والفارسية، تلك الوساطة التي اتخذت ضروبا كثيرة، في مقدمتها توظيف السرد في مضمار التنوير العقلي، فالكتاب الهندي وافق آداب الحكم الفارسية، وبتعريبه تعرفت الثقافة العربية في العقود الأولى من القرن الثاني الهجري على التجليات الرمزية للأدبين الهندي والفارسي، والمرجح أن ابن المقفع قد دفع حياته ثمنا لهذه الكتابة المبطنة، فالمغايرة كانت تستدعي تهمة جاهزة الزندقة.

ثبت الآن، أن عبد الله بن المقفع عرب الأصل الهندي، وعبر الفارسية للخرافات المسماة بنجاتنترا (الأسفار الخمسة) التي وضعت بين **100**-**500م**، وإن لم يلتزم الدقة في التعريب.

وأصبحت ترجمة ابن المقفع هي الأصل الذي لا يمكن لأحد أن يتخطاه، واستقام أمره كتابا مدرسيا للفصاحة التربوية، وللخرافات الاعتبارية القائمة على المثل والكناية وعبر العربية عرف انتشارا عالميا، ولا يستبعد أن خرافات الحيوان العربية حاكت خرافاته وحاكى مؤلفوها ما أراد بيدبا إيصاله إلى دبشليم الملك، كما تكشف الحكاية الإطارية للكتاب والكتاب كما هو معروف يلمح على لسان الحيوان ما لا يمكن التصريح به على لسان الإنسان، في شؤون معاملة الرعية وحكمها.

1. () ابن منظور، لسان العرب، م2، مادة خرف، ص 1138. [↑](#footnote-ref-2)
2. () المصدر نفسه. [↑](#footnote-ref-3)
3. () المصدر نفسه. [↑](#footnote-ref-4)
4. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص123. [↑](#footnote-ref-5)
5. \* عَنْ عَائِشَةَ قَالَتْ: حَدَّثَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم نِسَاءَهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ حَدِيثًا فَقَالَتْ امْرَأَةٌ مِنْهُنَّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَانَ الْحَدِيثُ حَدِيثَ خُرَافَةَ .

فَقَالَ: « أَتَدْرُونَ مَا خُرَافَةُ ؟! إِنَّ خُرَافَةَ كَانَ رَجُلًا مِنْ عُذْرَةَ أَسَرَتْهُ الْجِنُّ فِي الْجَاهِلِيَّةِ فَمَكَثَ فِيهِنَّ دَهْرًا طَوِيلاً ثُمَّ رَدُّوهُ إِلَى الإْنْسِ فَكَانَ يُحَدِّثُ النَّاسَ بِمَا رَأَى فِيهِمْ مِنْ الأْعَاجِيبِ » . فَقَالَ النَّاسُ حَدِيثُ خُرَافَةَ [↑](#footnote-ref-6)
6. () ينظر، عبد الله إبراهيم: موسوعة السرد العربي، ص133. [↑](#footnote-ref-7)
7. () ينظر: عبد الله إبراهيم، موسوعة السرد العربي، ص 57. [↑](#footnote-ref-8)
8. () عبد الفتاح كيليطو، المقامات، السرد والأنساق الثقافية، ترجمة: عبد الكبير الشرقاوي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، 1993، ص 133-134. [↑](#footnote-ref-9)